صوت الصامتين في الصين

دينا نصر عبد الفتاح
الهيئة العامة للاستعلامات

المجلة: World Literature Today

المصدر: World Literature Today

الكاتب: Hui Faye Xiao

الأستاذ المساعد ورئيس قسم لغات وثقافات شرق آسيا في جامعة كانساس الأمريكية.

تاريخ النشر: ربيع ٢٠٢١

مقدمة

في ظاهرة أدبية استرعت انتباه الخبراء والمهتمين بالأدب، حقق مقال خطته إحدى العاملات المنزليات في الصين نجاحاً باهرا، كان – خلافاً للمتوقع – حديث وسائل الاعلام الصينية والعالمية على حد سواء، لم تتناسب نسب قراءته ومشاركته على مواقع التواصل الاجتماعي مع بساطة وضع كاتبته الاجتماعي والثقافي ولكنه حتماً كان بمثابة شرارة الانطلاق لنوع من الأدب يُطلق عليه أدب عاملات المنازل.

تُرى ما هي الدلالة الاجتماعية والثقافية لذلك النجاح وماهي أبعاد ذلك النوع من الأدب في التراث الأدبي الصيني؟ هذا ما تجيب عنه هوي زياو/ Hui Faye Xiao، الأستاذ المساعد ورئيس قسم لغات وثقافات شرق آسيا في جامعة كانساس الأمريكية.

حيث شهدت الصين، منذ اطلاقها لبرنامج الإصلاح الاقتصادي عام ١٩٧٨،

ظاهرة هجرة أعداد كبيرة من النساء الريفيات للعمل في منازل الطبقة الوسطى في المدن كعاملات منزليات، تاركين خلفهم أسرهم وعائلاتهم في الريف. ولكن، عادة ما كان يتم اعتبار قرب هؤلاء العاملات المادي والنفسي من أرباب العمل مشكلة، وأحياناً كان يُرى كخطر حقيقي يتهدد الحفاظ على سلامة النظام داخل تلك المنازل. مؤخراً، تزايدت أعداد العمال المنزليين المشاركين في "المجموعة الأدبية في بيت العمال" الكائنة في بيكان/Picun، محطمين بذلك صمتاً طال أمده ليرووا قصصهم بأنفسهم، تلك القصص التي تلقي الضوء على مظاهر الظلم الاجتماعي واللامساواة والتي تتقاطع فيها مفاهيم الطبقية والنوع الجندريّ.

شرارة بدء غير متوقعة

في ٢٥ ابريل عام ٢٠١٧، نُشر مقال تحت عنوان "أنا فان يوسو/ I am Fan Yusu" على منصة Noonstories التابعة لتطبيق WeChat والمعنية بنشر الكتابات غير الخيالية، في غضون أربع وعشرين ساعة، كانت قد تمت قراءة المقال بما يفوق المائة ألف مرة وإعادة نشره بما يفوق مئات الآلاف من المرات على منصات عديدة للتواصل الاجتماعي من أمثال WeChatوWeibo. وفي غضون الأسابيع التالية كانت حمى "فان يوسو" قد انتشرت في وسائل الاعلام الحكومية والعالمية، ومنها People's Daily وChina Daily- أهم الصحف الرسمية الصينية والتي يديرها الحزب الشيوعي الصيني- بالإضافة إلى صحيفتي الجارديان والإيكونيميست. المقال هو عبارة عن السيرة الذاتية لفان يوسو، عاملة منزل عاشت في وقت من الأوقات في بيكان/Picun في أطراف بكين، وُلدت عام ١٩٧٣ لعائلة ريفية في أواسط الصين، وعملت في بداية حياتها وبعد إنهائها لدراستها الإعدادية كمعلمة للصفوف الابتدائية في إحدى مدارس القرية. وفي سن العشرين، ذهبت إلى بكين كعاملة مهاجرة، وفيها عملت أولاً كنادلة ثم كمربية مُقيمة، أو ما يُطلق عليه Baomu بالصينية. مسار حياتها يُماثل غيرها من مئات الملايين من النساء العاملات المهاجرات من قرى الصين الريفية.

ولكن، تُرى ما أسباب تحقيق مقال السيرة الذاتية ذاك لكل هذا النجاح؟ وما هي الأهمية والدلالة الاجتماعية والثقافية لنوعية الكتابة تلك (وهي كتابة الذات) التي مارستها هذه العاملة المنزلية؟ للإجابة عن تلك التساؤلات، ينبغي أولاً أن نفهم التراث الأدبي لتمثيل عمال المنازل وأهمية تلك الفئة الاجتماعية في ازدهار الصين الاقتصادي، وفقاً لعلم الاجتماع.

تجسيد نمطي مغاير للواقع

العاملة المنزلية أو المُربية، كشخصية مُمثلة لتلك الفئة الاجتماعية البائسة، كانت ومازالت موضوعاً يشكل أهمية كبرى للأدب الواقعي الصيني منذ بداياته. في تلك الأعمال المفعمة بالنفحات الإنسانية والتي وضعها، في القرن العشرين، كُتاب يميلون إلى التيار اليساري، غالباً ما كان يتم تجسيد المربية – بشكل نمطي– كإمراه صينية تقليدية تتحمل في صمت كافة أنواع المعاناة والظلم الاجتماعي. يرى لو زن/ Lu Xun – مؤسس الأدب الصيني الحديث كما يعتبره الكثيرون– في ذلك النموذج الناكر لذاته انعكاساً ل "أمنا الأرض العطوفة". كتبت العديد من الكاتبات الصينيات عن العاملات المنزليات من منظور جندريّ لإلقاء الضوء على الاضطهاد الطبقي الذي تعاني منه تلك الفئة المهمشة، بعبارة أخرى، كانت ومازالت العاملة المنزلية شخصية أساسية راسخة في نقطة الالتقاء ما بين الأدب النسوي والآداب الصغرى[1]، تلك الشخصية التي تكافح من أجل القاء الضوء على التجارب اليومية، الهموم والمعاناة التي تعيشها تلك الفئة الاجتماعية المهمشة، تجارب ومعاناة تتعلق في الأساس بالنوع الجندري، العرق، الطبقة والعمر.

ولكن، نادراً ما كانت تُكتب تلك الاعمال الأدبية الهامة بواسطة هؤلاء العاملات،

(١) الآداب الصغرى هي أنواع فرعية للآداب (لغز، نكتة، أحجية) في مقابل الأنواع الكبرى (الرواية، المسرحية، القصة) ولكنها تندمج في الكبرى ضمنياً.
"The unified dictionary of modern literature terms"

حتى أثناء الحقبة الاشتراكية، حين كان الحزب الشيوعي الصيني يقوم بتشجيع وتنظيم الأنشطة الأدبية الخاصة بعمال المصانع والمزارعين، فلا يمكننا أن نجد سوى القليل من الكتابات بقلم العاملات المنزليات، ويرجع ذلك إلى سببين. أولاً، أن معظم هؤلاء كانوا من النساء المسنات الأميّات الملزمات بمنازل لا يملكنها حتى. ثانياً، بالمقارنة بأقرانهن من المزارعين وعمال المصانع الذين كانوا يعيشون ويعملون داخل نفس الدوائر الاجتماعية، كن هن الأقل تنظيماً نظراً لوضعهن كمهاجرات من الريف إلى الحضر. ونتيجة لأوضاعهن المعيشية والعملية الأكثر عزلة، ووجودهن داخل قطاع وظيفي غير رسمي، كان الدعم المؤسسي الممنوح لهن لتشجيع إنتاجهن الأدبي ضعيف للغاية. كل تلك القيود الاجتماعية والاقتصادية أدت إلى شبه استحالة قيام إحداهن بخط سطراً واحداً في قصة حياتها.

بعد مرور أربعة عقود على بدء الإصلاح الاقتصادي في الصين (عام ١٩٧٨)، أدى ازدهار الصين الاقتصادي إلى صعود الطبقة الوسطى في المدن الحضرية والتي لجأت بدورها إلى شراء منازل خاصة بالإضافة الى شراء خدمة العمالة المنزلية لتحقيق حلم الحياة المثالية. ونتيجة لذلك، شهدت الصين نزوح أعداد هائلة من النساء الريفيات تاركين خلفهم أسرهم وعائلاتهم في الريف للعمل في منازل الطبقة الوسطى كعاملات منزليات. ولكن، غالباً ما كان يتم اعتبار القرب المادي والمعنوي لهؤلاء النسوة من أرباب أعمالهن بمثابة خطر يتهدد الحفاظ على سلامة واستقرار تلك البيوت. أدى سيل التقارير الإخبارية التي تنشرها الصحف الشعبية وغيرها من وسائل الإعلام السائدة إلى إعطاء صورة سلبية عن نموذج المربية أو العاملة المنزلية.

على سبيل المثال، صوّر مسلسل تلفزيوني حقق شهرة كبيرة عام ٢٠١٩، بعنوان All is well، عاملة المنزل الشابة كإمراة تستغل جاذبيتها للإيقاع برب العمل المسن والتلاعب به والاحتيال عليه للاستيلاء على ممتلكاته، نتيجة لكل تلك القوالب النمطية الاجتماعية والثقافية، يتم التعامل مع العاملات المنزليات باستخفاف ويُطلق عليهن

اصطلاحاً اسم "المربية الصغيرة" كناية عن دنو وضعهم الاجتماعي والاقتصادي وضبابية وضعهم الأخلاقي إلى جانب الإيحاء بانخفاض متوسط العمر المقبول في سوق العمالة بكل ما فيه من تنافسية شرسة.

أصالة التعبير عن الذات ومنح الصوت لمن لا صوت لهم

في مواجهة ذلك التيار الاجتماعي والثقافي السائد والمعني بتحقير العاملات المنزليات، يمكن النظر إلى مقال فان يوسو باعتباره مقالا رائداً حقيقياً إذ أنه القطعة الأدبية الأولى التي تكتبها عاملة منزلية حول حياتها. تلك القطعة جذبت اهتماماً إعلامياً كبيراً وأثارت جدلاً عاماً ساخناً. ففيها تؤرخ لحياتها وعملها من خلال سرد جندريّ بديل تصيغه بكلمات إمراه عاملة مهاجرة حقيقية، ذلك السرد منح صوتاً لهؤلاء العاملات اللائي طالما تم اخراسهن وتحقيرهن، هؤلاء النسوة المشتتات والمحصورات بين بيوت ملايين العائلات المنتمية للطبقة الوسطى.

من هذا المنطلق، فإن الكتابة الذاتية التي مارستها "فان" تعتبر امتداداً لتقاليد الآداب الصغرى والأدب النسويّ والتي بدأت منذ بدايات القرن العشرين، والأهم من ذلك، فإن مشاركتها في المجموعة الأدبية في بيت العمال في بيكان / Picun وتفاعلها الدائم مع غيرها من الكاتبات من العاملات المنزليات المهاجرات يشير إلى بدء تكوين مجتمعاً صغيراً خارج الدوائر الأدبية السائدة. كتابات "فان" الهمت المزيد من العاملات المنزليات لكتابة ونشر قصصهن بأنفسهن.

حماس وإصرار رغم قسوة الظروف

حين قمت بزيارة المجموعة الأدبية" في عام ٢٠١٩، اخبرتني فو كيون/ Fu Qiuyun، وهي امرأة عاملة مهاجرة قامت بتأسيس تلك المجموعة بناء على اقتراح قريناتها من العاملات المهتمات بالأدب أن المجموعة الأدبية أصبحت أكثر وحدات بيت العمال شعبية واستمرارية وأن أعمار المشاركين المنتظمين بها تبدأ من العاشرة وحتى العشرين من العمر، غالباً ما لا تنتظم المشاركات لأنهن غالباً ما يتركن

وظائفهن ويغيرن أماكن إقامتهن نظراً لعدم تمتع العاملات المهاجرات بأي استقرار وظيفي أو حياتي. في البداية كان هناك قلة من العاملات المنزليات المشاركات في المجموعة الأدبية وكانت فان يوسو/Fan Yusu بمثابة الاستثناءَ. بعد نشر مقالها، تزايدت أعداد العاملات المنزليات المنضمات للمجموعة الأدبية، وكانت تضطررن إلى إمضاء ساعات مطولة في الحافلات أو مترو الأنفاق للوصول إلى مقر المجموعة في بيكان/Picun نظراً لبعدها كثيراُ عن بكين مقر عمل وحياة معظم هؤلاء النسوة. أحياناً ما كان يصل بهن الاستغراق في الأنشطة الأدبية الحد الذي يؤخرهن عن اللحاق بآخر رحلات الحافلة أو مترو الانفاق التي تقلهن إلى مقر أقامتهن، فكانت تضطررن إلى إمضاء الليلة في المكتب الخاص بالمجموعة المجاور لمتحف عمال المنازل الكائن ببيت العمال.

أظهرت تلك الفئة الاجتماعية المهمشة والمهانة حماساً عظيماً لإبداع كتاباتهن الخاصة، والتي يبدعنها باستخدام اللغة العامية –المتسمة بالفظاظة في بعض الأحيان– للتعبير عن موضوعات عادة ما تعتبرها وسائل الإعلام السائدة أو التاريخ الأدبي الرسمي تافهة وعديمة القيمة. بالمقارنة بالأعمال الأدبية المخضرمة، تعد أعمالهن أقل تنظيماً وصقلاً، ولكنها الأسهل قراءةً وكتابةً لهؤلاء العاملات اللائي لا تمهلهن جداول مواعيدهن المتخمة ولا وظائفهن غير المستقرة الفرصة الكافية لاستثمار ما يتبقى لهن من وقت متشرذم لممارسة تلك الأنشطة الأدبية. بكتاباتهن، تمكنت تلك العاملات المنزليات من كسر الصمت الذي طال أمده وإيجاد أصواتهن ورؤاهن النقدية الخاصة. منحتهن المجموعة الأدبية بيتاً ثقافياً في مدينة غريبة ونقطة انطلاق لشبكة متنامية من الكاتبات ممن يمارسن العمل في المنازل. من خلال نصوصهن الثقافية الخاصة، نجحت تلك العاملات المهمشات في إظهار قوة الضآلة، نجحن في جمع طاقات تلك الأفراد المشتتة لتأسيس مشاعاً أدبياً لم تكن لتعترف به وسائل الاعلام السائدة ولا ثقافة الطبقة الوسطى.